خيريَّة المؤمن في أهل بيته

(النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً)

سعيد بن محمد آل ثابت

شبكة الألوكة
www.alukah.net

خيريَّة المؤمن في أهل بيته

(النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً)

سعيد بن محمد آل ثابت

بسم الله الرحمن الرحيم

- مقدمة.
- بين يدي الموضوع (لماذيات):

أولاً: البيت وأهله في الإسلام.

ثانياً: لمحة في حياة الأنبياء والرسل تجلّي خيريّتهم لأهلهم.

ثالثاً: اهتمام الشريعة بالبيوت آدابها وحُرمتها.

- "وأنا خيركم لأهلي":

أولاً: "خَيْرُكُمْ خَيْرَكُمْ لأهلِهِ".

ثانياً: "قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا".

ثالثاً: "كان خلقه القرآن".

- الخاتمة.

- مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

اعتنت الشريعة بإصلاح الأسرة وأهل بيت الإنسان، بل كانت من أولى واجبات الرسالة قبل الصدع بها في العالمين، قال تعالى: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (الشعراء:٢١٤)، وهو أول مشروع لأولي الألباب، إذ يدركون المسؤولية المناطة بهم أولاً تجاه من يعولون، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، –قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ– وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" رواه الشيخان، ومن ثم يدركون ثمرة ذلك في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا سعة الحياة، وحصول المنفعة، وازديان العيش، وفي الآخرة تبدأ قصة النفع منذ أول ليلة في القبر، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"، ومن هذه المنطلقات وغيرها، لتؤكد لنا الدور المناط بكل مسؤول في بيته، الدور الذي يبدأ منذ اللبنة الأولى في بناء الأسرة وتأسيسها، وكيف يكون الهدي التربوي مع كافة أفرادها، لا سيما وأن عصور السرعة والحضارة تتطلب كثيراً من الجهد والوعي، الذي يتفوق على التحديات في زمن عولمة القيم المرغوبة وغير المرغوبة، وفي هذه الورقة آليت أن أقدمها تحت عنوان: خيرية المؤمن في أهل بيته (النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً)؛ تيمناً بهديه عليه الصلاة والسلام، وإيماناً بنموذجه الكامل في قوامته وخيريته في بيته، وتأكيداً لأهمية هذا الدور الذي بات باهتاً حتى عند كثيرٍ من الأخيار، فضلاً عامة الناس، تشغله الأحداث والأحوال من جانبه عما يتوجب عليه تجاه من يعول، والبعض يكتفي مع أزمان التحوّلات بالولولة واللعن ومقت الزمان، ولا ينبس ببنت شفة ليصلح ويقوّم شعبة إيمانية في فرد من أفراد بيته، وكل ذلك من الخذلان والعياذ بالله.

وقد اتخذتُ رسول الهدى صلى الله عليه وسلم نموذجاً لبيان ذلك، ليجمع في أذهاننا كل شارد، ويقطع كل شك، قال سبحانه: "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب:٢١)، فاتخاذ رسول الله في شأن الإصلاح الدعوي والتربوي قدوةً لأمرين؛ لأنه مُشرّع بأمر الله تعالى، والله أمر باتباعه وباتخاذه قدوة، وهو خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الذي كملت فيه صفاتهم الحسنة ومُثُلهم العليا، قال الله تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم:٤)، وقال سبحانه: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ" (الأنعام: ٩٠)، قال السعدي في تفسيره: (أي: امش – أيها الرسول الكريم – خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امتثل صلى الله عليه وسلم، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ، استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل الرسل كلهم).

والثانية وهو أمر معقول؛ لأنه على مستوى النجاح والاتقان فلا شك أن مخرجاته عليه الصلاة والسلام في أزواجه وأبنائه وخدمه ومن يعول، بل وكلّ أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين قد بلغت ذروة الكمال وأبلغ التمام فيما يدعو إليه، ولعل الله أن يسددنا في نمذجة ما نصبوا إليه بلغة سهلة التوجيه وقريبة المنال؛ وسالمة عن التعقيد والإطالة لعلها تلامس احتياجاتنا، ورجاء أن تكون مُتجليةً في أذهاننا، واقعاً في حياتنا، والله الموفق.

- بين يدي الموضوع (لماذيات):

هنا نجيب عن أهمية الموضوع قبل أن ندلف إليه، نجيب عن سؤال (لماذا هذا الموضوع؟)، وستكون الإجابة من خلال ثلاثة عناصر، الأول عن مفهوم البيت وأهله في الإسلام، والثاني عن الأنبياء وخيريتهم في أهلهم، والثالث عن اهتمام الشريعة بالبيت معنى ومبنى.

أولاً: البيت وأهله في الإسلام:

– هم السكن، قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم:٢١). قال ابن كثير في تفسيره: وقوله: ("ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا" أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً يكنّ لكم أزواجاً، "لتسكنوا إليها"، كما قال تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا" (الأعراف: ١٨٩) يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون").

– وقد ندب الوحي لإقامة العبادات به، قال سبحانه: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس:٨٧)، قال الطبري في تفسيره: (واجعلوا

بيوتكم قبلة)، يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَجعَلوا بُيوتَكم قُبورًا، ولا تَجعَلوا قَبْري عيدًا، وصلُّوا علَيَّ؛ فإنَّ صلاتَكم تبلُغُني حيثُ كنتم" أخرجه أبو داود واللفظ له، وأحمد.

- ورجاء أن يكون أهل البيت قرة العين من مقاصد عباد الله الصالحين، قال سبحانه: "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا" (الفرقان:٧٤). (قال الحسن البصري – وسئل عن هذه الآية – فقال: أن يري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا، أو ولد ولد، أو أخا، أو حميما مطيعا لله عز وجل. وقال ابن جريج في قوله: "هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين"، قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام)[1]. قال ابن عاشور في التحرير: (وقد جُمع ذلك لهم في صفة {قرة أعين}. فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقَرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين).

- والزوجة الصالحة علاوة على أنها سكن ورحمة، فهي سبب لقوة الزوج، وأساس في استقرار البيت، وقد جوزيت خديجة رضي الله عنها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، جزاء ما وفرت في بيت رسول الله من طمأنينة واستعداد نفسي لأمر الدعوة، وذلك نتيجة البناء والهدي النبوي في استثمار أهل بيته وإشراكه إياهم هموم الدعوة، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: اعتمَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واعتمَرْنا معَه، فلما دخَل مكةَ طاف وطُفْنا معَه، وأتى الصَّفا والمروةَ وأتيناهما معَه، وكنا نستُرُه من أهلِ مكةَ أن يرمِيَه أحدٌ، فقال له صاحبٌ لِي: أكان دخَل الكعبةَ؟، قال: "لا"، قال: فحدِّثْنا ما قال لخديجةَ؟، قال: "بشَّروا خديجةَ ببيتٍ من الجنةِ من قصَبٍ، لا صخَبَ فيه ولا نصَبَ". أخرجه البخاري واللفظ له، ومسلم، فمن أراد كخديجة لرسول الله، فليكن كرسول الله عند خديجة، وكذلك من أرادت كرسول الله عند خديجة فلتكن كخديجة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وانظر خبر إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، حين كان ينزل مكة ليطمئن على إسماعيل، وكيف كانت مؤشرات الزوجة الصالحة لدى الخليل عليه السلام، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "...حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم (أي بمكة مع إسماعيل وأمه)، وشبَّ الغلامُ وتعلَّمَ العربيةَ منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدركَ زوَّجوهُ امرأةً منهم، وماتت أمُّ إسماعيلَ، فجاء

[1] تفسير ابن كثير.

إبراهيمُ بعد ما تزوجَ إسماعيلُ يُطالعُ تَرِكَتَهُ، فلم يجد إسماعيلَ، فسأل امرأتَهُ عنهُ فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بشرٌ، نحنُ في ضيقٍ وشدةٍ، فشكت إليهِ، قال: فإذا جاء زوجكِ فاقرئي عليهِ السلامَ، وقولي لهُ يُغَيِّرْ عتبةَ بابِهِ، فلما جاء إسماعيلُ كأنَّهُ آنسَ شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألَنَا عنكَ فأخبرتُهُ، وسألني كيف عيشنا، فأخبرتُهُ أنَّا في جهدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأَ عليك السلامَ، ويقولُ: غَيِّرْ عتبةَ بابكَ، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفَارِقَكِ، الحقي بأهلِكِ، فطلَّقها، وتزوَّجَ منهم أخرى، فلبثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء اللهُ، ثم أتاهم بعدُ فلم يجدْهُ، فدخل على امرأتِهِ فسألها عنهُ، قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، قالت: نحنُ بخيرٍ وسِعَةٍ، وأثنتْ على اللهِ. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحمُ. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماءُ. قال: اللهمَّ بارِكْ في اللحمِ والماءِ. قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيهِ". قال: فهما لا يَخلو عليهما أحدٌ بغيرِ مكةَ إلا لم يُوافقاهُ. قال: فإذا جاء زوجكِ فاقرئي عليهِ السلامَ، ومُريهِ يُثَبِّتْ عتبةَ بابِهِ، فلما جاء إسماعيلُ قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسنُ الهيئةِ، وأثنتْ عليهِ، فسألني عنك فأخبرتُهُ، فسألني كيف عيشنا فأخبرتُهُ أنَّا بخيرٍ، قال: فأوصاكِ بشيءٍ، قالت: نعم، هو يقرأُ عليك السلامَ، ويأمرك أن تُثَبِّتْ عتبةَ بابكَ، قال: ذاك أبي وأنتِ العتبةُ، أمرني أن أُمْسِكَكِ" رواه البخاري. وحين نكمل القصة من فِيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد العجب العجاب من سيرة إبراهيم عليه السلام الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فهو لم يكتف بهذا مع ابنه بل رجع إليه، وأشركه الخير والعطاء، قال عليه الصلاة والسلام: "ثم لبث عنهم ما شاء اللهُ، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا لهُ تحت دَوْحَةٍ قريبًا من زمزمَ، فلما رآهُ قام إليهِ، فصنعا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ والولدُ بالوالدِ، ثم قال: إنَّ اللهَ أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمر ربكَ، قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينكَ، قال: فإنَّ اللهَ أمرني أن أبني ها هنا بيتا، وأشار إلى أَكْمَةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعدَ من البيتِ، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ، جاء بهذا الحجرِ، فوضعَهُ لهُ فقام عليهِ، وهو يبني وإسماعيلُ يُنَاوِلُهُ الحجارةَ، وهما يقولانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قال: فجعلا يبنيانِ حتى يدورا حول البيتِ وهما يقولانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رواه البخاري.

- وفي المقابل قد يكونوا عدوّاً، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (التغابن:١٤)، والأبناء فتنة، قال سبحانه: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" (الأنفال:٢٨)، بل وانظر إلى أكثر من ذلك، فعن يعلى بن أمية رضي الله عنه قال: جاءَ الحسنُ والحسينُ يستبقانِ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ،

فضمَّهما إليْهِ ثمَّ قالَ: "إنَّ الولدَ مبخلةٌ مجبنةٌ محزَنةٌ" أخرجه ابن ماجه، وأحمد، والحاكم واللفظ له، عن الأسود بن خلف رضي الله عنه قال: عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنه أخذ حسَنًا فقبَّله ثم أقبل عليهم فقال: "إن الولدَ مبخلةٌ مجهلةٌ مجبنةٌ" رواه الهيثمي في مجمع الزوائد. والأبناء من زينة الحياة الدنيا، التي قد تشغل عن الآخرة، قال سبحانه: "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا" (الكهف:٤٦).

لكن هل هذا على إطلاقه؟ الأبناءُ والذُّريَّة مِن أجَلِّ نِعَمِ اللهِ على عِبادِه، ولكنَّ بعضَ النَّاسِ لا يُحسِنُ التَّعامُلَ مع النِّعَمِ فتُحوَّلُ إلى نِقْمةٍ وفتنةٍ، قال ابن كثير في تفسيره: (وقوله تعالى: "واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة" أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم" (التغابن:١٥)، وقال: "ونبلوكم بالشر والخير فتنة" (الأنبياء:٣٥)، وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون" (المنافقون:٩)، وقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم" الآية (التغابن: ١٤). وقال مجاهد: "إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم" قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه).

وهنا ملمح مهم في آية التغابن أورده السعدي في تفسيره، قال: (ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: "وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره).

ولذلك حذَّر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ذلك، وفي حديث يَعْلى العامِريُّ رَضِيَ اللهُ عنه يقول: جاء الحسَنُ والحُسَينُ يَسْعَيَانِ، أي: يَجْرِيَانِ ويُسْرِعانِ، إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم فضَمَّهما إليه، أي: احتَضَنهما، وقال: "إنَّ الولَدَ مَبخَلةٌ"، أي: إنَّ الولَدَ سبَبٌ للبُخلِ بالمالِ، "مَجبَنةٌ"، أي: سببٌ لِجُبنِ الأبِ؛ فإنَّه يتَقاعَدُ مِن الغزَواتِ بسبَبِ حُبِّ الأولادِ والخوفِ مِن الموتِ عنهم. وقولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم ذلك: كِنايةٌ عَن المَحبَّةِ لِحَفيدَيْه على ما يَقْتَضيه الْمَقامُ؛ فيَكونُ مَدحًا، وإنْ كان الحديثُ في الظَّاهرِ كِنايةً عن ذَمِّ الانشِغالِ بالولَدِ والذُّرِّيَّةِ، وإنَّما ذكَرَهما هُنا؛ لأنَّهما يَدُلَّانِ على كَمالِ المَحبَّةِ الطَّبيعيَّةِ، والمودَّةِ العادِيَّةِ المورِّثةِ للبُخلِ والجُبنِ لِمَن لم يَكُنْ كامِلًا في مَرْتبةِ العُبوديَّةِ، وما يَقتَضيها مِن تَقدُّمِ مَحبَّةِ مَرْضاةِ الرَّبِّ على ما سِواه؛ لأنَّه هو المحبوبُ الحقيقيُّ وما سِواه مَحْبوبٌ إضافيٌّ. وفي روايةٍ عِندَ الطَّبرانيِّ قال: "مَجْهَلةٌ"؛ لِكَونِه يُحمَلُ على تَركِ الرِّحْلةِ في طلَبِ العِلمِ والجِدِّ في

تَحصيلِه؛ لاهتِمامِه بتَحْصيلِ المالِ له. وفي روايةِ أحمَدَ مِن حديثِ الأشعَثِ بنِ قيسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: "مَحْزَنَةٌ"؛ لأنَّه يَحمِلُ أبَوَيْهِ على كَثرَةِ الحُزنِ؛ لكَوْنِه إنْ مَرِضَ حَزِنَا، وإنْ طلَب شيئًا لا قُدرَةَ لهما عليه حَزِنَا، أي: إنَّ الأولادَ مَظِنَّةٌ لِيَكونوا سَببًا في حُدوثِ هذه الأمورِ مِن الآباءِ، فَلْيَحذَروا مِن الوُقوعِ في ذلك، ومن جِهةٍ أخرى وردَتْ أحاديثُ كثيرةٌ دَالَّةٌ على فَضْلِ تربيةِ الأولادِ والثَّوابِ على ذلك. وفي النصوص كذلك: التَّحذيرُ مِن فِتْنةِ الأولادِ وأَنْ يَكونوا سَببًا في البُعْدِ عَن الطَّاعاتِ والواجباتِ.

ثانياً: لمحة في حياة الأنبياء والرسل تجلّي خيريّتهم لأهلهم:

- نوح عليه السلام:

تأمل هذا المشهد القرآني الأبوي العظيم والذي يؤكد الحضور الأبوي المتدفق رحمة وحرصاً، من أحد أولي العزم من الرسل، بل ربما كان أكثرهم عمراً في الدعوة، وهو نوح عليهم السلام، يقول تعالى: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ" (هود). هكذا هي الأبوة، الأبوة رغبة في الهداية، ورحمة بالابن. ونجد هنا أن الابن الضال لم يرد إلا بالعقوق لربه ولأبيه، ولم يكتف نوح عليه السلام بدعاء ابنه الذي أبى النجاة في الدنيا قبل الآخرة، بل كان يرجو الله في مصير ابنه إلا أن الله نهاه عن ذلك، إن هذا المشهد يعطينا الدور الإيجابي لكل أب مع من يعول، عليه الاجتهاد والتأديب، والهداية من الله.

- إبراهيم عليه السلام:

كان إبراهيم عليه السلام نموذجاً بارزاً في دوره الدعوي والتربوي تجاه أبنائه، وقد مر بنا جزءاً منها، والقرآن مليء بها، بل وتوارث أبناؤه (كما شهد القرآن) إسماعيل ويعقوب كذلك عليهم السلام هذا الدور، وهنا نقتصر في دور إبراهيم عليه السلام على هذا النموذج الفريد، يقول تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ

الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ" (إبراهيم)، فحين تتأمل دعاءه لهم، تجد العناية الفائقة بهم في كل احتياجاتهم، حيث شمل الدعاء ركائز الحياة الطيبة، وهي:

١. الأمن في الأوطان. "رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا".

٢. التوحيد وعبادة الله. "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ"، "رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ".

٣. إقامة الصلاة. "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ".

٤. محبة الناس. "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ".

٥. صلاح الدنيا، والاكتفاء الذاتي. "وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ".

وقد كان أبناؤه ونسله قد استلهموا منه هذا المبدأ، قال سبحانه: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)" (مريم)، وتأمل التوريث الديني والوصية من لدن إبراهيم لبنيه وهم لأبنائهم عليهم السلام، قال سبحانه: "وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (البقرة:١٣٢)، وتأمل كذلك يعقوب عليه السلام: "أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (البقرة:١٣٣)، وانظر بركة تلك الوصايا، فقد صدح بذلك يوسف بن يعقوب عليهما السلام، قال سبحانه: "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" (يوسف:٣٨).

- زكريا عليه السلام: ولزكريا عليه السلام قصة عجيبة، فحين حُرم الأبناء زمناً، ثم سأل الله الولد، لم يكن دعاؤه مقصوراً على ذلك، بل سأل الله الذرية (الطيبة)، والابن (الرضي)، فبلا هذه المؤهلات سيكون الولد حزناً وشقاءً، قال تعالى: "كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)"(مريم)، وتأمل هبة الله لزكريا، وكيف يكون الولد رضياً كما سأل زكريا عليه السلام، قال سبحانه: "يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)"(مريم)، فاسمه لم

يسبقه أحد له، ونبغ منذ صباه، وأوتي حناناً وزكاء وتقىً من الله، بل كان باراً لا يعاند ولا يعصي، ثم أحل الله عليه السلام في كل أحواله، وهكذا يكون الولد قرة عين، نسأل الله من فضله.

- لقمان الرجل الصالح:

يقول تعالى: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (لقمان:١٣)، وانظر بقية تلك الوصايا العظيمة لتجد الحرص المتدفق من هذا الحكيم؛ ليؤكد أن صلاح البيت والأبناء يحتاج لجهد وترقّي، بعيداً عن العشوائية وترك الأمور على أعنّتها..

ثالثاً: اهتمام الشريعة بالبيوت آدابها وحُرمتها:

اهتمت الشريعة بتعزيز الدور التربوي في البيت المسلم، ورسمت منهجاً متكاملاً في ذلك منذ البذرة الأولى في نشأة البيت، وما تركت شيئاً في الجملة من أخلاقيات البيوت وآدابها إلا تحدثت عنه، وبين دفتي المصحف وفي بستان السنة النبوية يستطيع وليّ الأسرة استحضار أفضل التعاليم وأنبلها داخل بيته ومع أفراد أسرته، وهنا نموذج من القرآن في أحد هذه التعاليم يوضح لنا كيف اعتنى الإسلام وحرص على تربية المسلمين التربية المتكاملة، وكيف تناول الموضوعات التي ربما يعدها البعض هامشياً بشكل جاد، والنموذج هو (أدب الاستئذان)، فإلى الآيات:

- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)" (النور).

- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)"(النور).

- "لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا

جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (النور: ٦١).

- "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا"(الأحزاب:٥٣).
- "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)"(الحجرات).

وها أنت تجد بمجموع هذه الآيات كيف نظمت لنا على الأقل الإطار العام في آداب الاستئذان، فكيف لو اجتمع معها ما في السنة النبوية من أقوال وأفعال وتقريرات؟!

إن ذلك كله ليؤكد أن هذه التعاليم حتى تدرس وتعزز خلفها من يعززها ويعلمها، وهذا لا شك من الأولويات البدهية لكل راع مسؤول عمن يعول؛ لذا يتأكد أن يسير كل منا على هدْي واضح ومنهج قويم يكفل بإذن الله بمخرجات سويّة وجيل فريد، وهذا ما سنتحدث عنه بإذن الله في العنصر القادم.

- "وأنا خيركم لأهلي":
- هدي النبي صلى الله عليه وسلم هو أكمل الهدي وأنبله، اخترناه لشرفه وحسن نتاجه، وقد تحدثنا في المقدمة بما يكفي عن ذلك، وفي هذا العجالة لا ندّعي الاستيفاء الكامل، لكن أزعم أنها تعطي تصوراً على الأقل يحوي الصورة الفاضلة عن حياته صلى الله عليه وسلم والمتوقعة كذلك في القارئ من خلال ثلاثة عناصر رئيسة، الأول عن خيرية الرجل في أهل بيته بحسن تعامله ومعشره، والثاني بإصلاحهم وتوجيههم، والثالث بصلاحه في نفسه، وبهذه المحاور وما تضم من مفردات تتضح لدينا منهجية النبي عليه الصلاة والسلام وهديه التربوي في بيته، وأرجو الله السداد والتوفيق.

أولاً: "خَيْرُكُمْ خَيْرَكُمْ لأهلِهِ"، وهذه القاعدة النبوية نجدها متمثلة فيما يلي:

أ. المعاملة الحسنة: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ خَيْرَكُمْ لأهلِهِ وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي" رواه الترمذي. والأهل هنا يشمل الزوجات والأقارب والأولاد، كما

في تحفة الأحوذي في شرح الترمذي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم" رواه أحمد والترمذي.

ب. وكان يوصي أصحابه بزوجاتهم خيراً ويقول: "ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عَوَانٍ عندكم – أي أسيرات –" رواه الترمذي.

ت. قال ابن كثير رحمه الله: (وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العِشْرَة دائم البِشْر، يداعب أهله، ويَتَلَطّفُ بهم، ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحِك نساءَه... ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كَتِفَيْه الرِّداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلا قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم).[٢]

ث. في مهنة أهله: في صحيح البخاري عن الأسود رضي الله عنه قال: سألتُ عائشةَ ما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصنعُ في بيتِه؟ قالت: كان يكونُ في مهنةِ أهلِه تعني خدمةَ أهلِه فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاة. وروى أحمد وابن حبان وصححه عن عروة رضي الله عنه قال: قلت لعائشةَ رضي الله عنها: ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعمَلُ في بيتِه؟ قالت: كان يَخيطُ ثوبَه ويخصِفُ نعلَه ويعمَلُ ما يعمَلُ الرِّجالُ في بيوتِهم. وهذا يدل على إعانته لأهله، لا كما يتوهمه بعض الناس من أن ذلك نقصاً وعيباً أن يعين الرجل أهله في أعمال البيت، وهذا التعاون يولد الألفة والمحبة بين الزوج وزوجته كما لا يخفى، وربما كان بذلك زرع القيم النبيلة وتعديل السلوكيات الخاطئة، فهي أبلغ من مئة محاضرة.

وقد سئلت عَائِشَة رضي الله عنها: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ فقَالَتْ: كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَه. رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

ج. التوسعة والترفيه: كان صلى الله عليه وسلم يستثمر المناسبات في إدخال السرور على أهله، تقول عائشة رضي الله عنها: أنها كانت مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ وهي جاريةٌ، قالت: لم أحملِ اللَّحمَ ولم أُبدُنْ، فقال لأصحابه: "تقدَّموا" فتقدَّموا ثم قال: "تعالَيْ أُسابقُك" فسابقتُه فسبقتُه على رجليَّ فلما كان بعدُ (وفي روايةٍ فسكت عني حتى إذا حملتُ اللحمَ وبدُنتُ ونسيتُ) خرجتُ معه في سفرٍ فقال لأصحابِه: "تقدَّموا" فتقدَّموا ثم قال: "تَعالَيْ أسابقُك" ونسيتُ الذي كان وقد حملتُ اللحمَ فقلتُ كيف

[٢] تفسير ابن كثير.

أُسابقُك يا رسولَ اللهِ وأنا على هذا الحالِ؟ فقال: "لَتفْعَلِنَّ" فسابقتُه فسبقَني فجعل يضحكُ وقال: "هذه بتلكَ السَّبقةِ". رواه الألباني في السلسلة الصحيحة.

وكان من حُسن معاشرته مع أهلـــه أن كان يُمكّن عائشة من اللعب مع بنات الأنصار، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وعِندِي جاريتانِ، تُغَنِّيانِ بِغِناءِ بُعاثَ: فاضطجع على الفِراشِ وحوَّل وجهَه، ودخل أبو بكرٍ فانْتَهَرَني، وقال: مِزْمارةُ الشيطانِ عِند النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فأقبل عليه رسولُ اللهِ عليه السلامُ فقال: "دعْهُما" فلمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فخرَجَتا، وكان يومَ عيدٍ يلعبُ السُّودانُ بالدَّرَقِ والحِرابِ، فإمَّا سألتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وإمَّا قال: "تشتهينَ تنظُرينَ" فقلتُ: نَعَمْ، فأقامَني وَرَاءَهُ، خَدِّي علَى خَدِّهِ، وهو يقولُ: "دونَكم يا بَنِي أَرْفِدَةَ"، حتَّى إذا مَلِلْتُ قال: "حَسْبُكِ" قلتُ: نَعَمْ، قال: "فاذهبي". رواه البخاري، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن، وكل هذا يدل على حسن معاشرته لأهله ورفقه بهن صلى الله عليه وسلم. وفي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة خيبر، وتزوج صفيه بنت حيي كان يدير كساءً حول البعير الذي تركبه يسترها به، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع رجلها على ركبته حتى تركب، وكان صلى الله عليه وسلم في ذلك عادلاً بين زوجاته لا سيما في الأسفار، عن عائشة رضي الله عنه قالت: كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ إذَا أرادَ سفرًا أقْرَعَ بينَ نسَائِهِ، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خرجَ بِهَا معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَهَا وليلَتَهَا، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ وهَبَتْ يومهَا وليلَتَهَا لعائِشَةَ زوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، تَبْتَغِي بذلِكَ رضَا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. رواه البخاري.

ح. مراعاة مشاعرهم: كان صلى الله عليه وسلم حَسنَ المعاشرة للناس جميعاً ولزوجاته وأهل بيته خاصةً فنجده ينادي أم المؤمنين بترخيم اسمها وخبرها خبراً تطير له القلوب فرحاً. عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا عائشُ، هذا جبريلُ يقرئكِ السَّلامَ"، فقلتُ: وعليهِ السَّلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ. رواه البخاري. وقالت أيضاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم قبَّل امرأةً من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. رواه أبو داود والترمذي، وقالت أيضاً رضي الله عنها: كنتُ أغتسلُ أنا ورسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من إناءٍ واحدٍ، ونحن جنبان. رواه البخاري. وباب حسن المعاشرة من أوسع أبواب سكن البيوت وإصلاحها، إذ لا يُقبل من سيّء المعشر كريه الخصال صلف

الطباع صرفاً ولا عدلاً، بل وقد امتلك رسول الله عليه الصلاة والسلام قلوب أزواجه في أحوال قلما يوفق له الرجال، وسنستعرضها تباعاً، وهي في حال غيرتهن، وحيضهن، وغضبهن رضي الله عنهن:

- حال الغيرة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: التمستُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأدخلتُ يدي في شعرِه، فقال: "قد جاءك شيطانُك"، فقلتُ: أما لك شيطانٌ؟ فقال: "بلَى! ولكنَّ اللهَ أعانني عليه فأسلم" رواه النسائي وصححه الألباني. وفيه بيان أن الغيرة ملازمة للمرأة عند النوم واليقظة، وينبغي للمرأة الاعتدال فيها وعلى الرجـــل الاعتدال في المحاسبة عليها.
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عندَ بَعضِ نسائِه، فأَرسلَتْ إِحْدى أُمَّهاتِ الْمُؤمِنينَ بِصَحْفةٍ فيها طَعامٌ، فضَربَتِ الَّتي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في بَيتِها يدَ الخادِمِ، فسَقَطَتِ الصَّحْفةُ، فانفلَقتْ، فجَمعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فِلَقَ الصَّحفَةِ، ثُمَّ جعَلَ يَجمَعُ فيها الطَّعامَ الَّذي كان في الصَّحْفةِ، ويَقولُ: غارَتْ أُمُّكم! ثُمَّ حَبَسَ الخادِمَ حتَّى أُتِيَ بِصَحْفةٍ مِن عندِ الَّتي هوَ في بَيتِها، فَدفَع الصَّحْفةَ الصَّحيحةَ إلى الَّتي كُسِرت صَحفتُها، وأَمسَك المَكسورَةَ في بَيتِ الَّتي كَسَرَت. رواه البخاري، وزاد الترمذي وصححه الألباني "طعام بطعام وإناء بإناء"، وعند الترمذي والنسائي وغيرهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بيت عائشة والتي أرسلت الصحفة هي أم سلمة رضي الله عنهم. وهذا من حسن تصرفه وحَلّه لهذا الموقف معللا هذا الخطأ من عائشة بقوله "غارت أمكم" اعتذاراً منه لعائشة رضي الله عنها وأن هذا من عادة الضرائر دمن الغيرة.
- حال الحيض: كان صلى الله عليه وسلم يتكئ في حُجر عائشة رضي الله عنها، ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها وربما كانت حائضاً وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم. ولعمري أي صلاح واستقرار نفسي وعاطفي ونماء يتركه هذا الفعل لو كان من كل زوج لزوجته. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أشربُ وأنا حائضٌ، ثم أُنَاوِلُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فيَضَعُ فاه على موضِعِ فيَّ، فيشرب، وأَتَعَرَّقُ العَرَقَ وأنا حائضٌ، ثم أُنَاوِلُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فيَضَعُ فاه على مَوضِعِ فيَّ. رواه مسلم.
- حال الغضب: كان صلى الله عليه وسلم يراضي زوجاته رضي الله عنهن، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: جاء أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله، فأذن له فدخل فقال: يـــا ابنة أم رومان !! وتناولها، أترفعين صوتك على رسول الله؟ فحال النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينها، قال فلما خرج أبو بكر جعل

النبي يقول لها يترضاها "ألا ترين أني قد حلتُ بين الرجل وبينك"، قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها، قال: فأذن له فدخل فقال أبو بكر: يا رسول الله أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما. رواه أحمد وأبو داود.

ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بمشاعر أمهات المؤمنين، ما رواه الشيخان عن عائشة قالت: قال لي رسول الله: "إني لأعلم إذا كنتِ عني راضيةً وإذا كنتِ عليَّ غضبى"، قالت: فقلت من أين تعرف ذلك؟ فقال: "أما إذا كنتِ عنيّ راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنتِ غضبى قلتِ لا ورب إبراهيم"، قالت: فقلت أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك. فمن عنايته بمشاعرها صار يعلم رضاها وغضبها من مجرد كلامها.

خ. الوفاء لأهل البيت: وكان صلى الله عليه وسلم يرعى حق الزوجية حتى بعد موت الزوجة، وفي هذا حفظ لآثار الراحلين ودرس لمن بعدهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غِرتُ على خديجة وما رأيتها ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: "إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد" رواه البخاري.

د. التكيف مع الواقع: كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب طعاما قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. وكان ربما دار الشهر وراء الشهر فلا يجد ما يقوته إلا التمر والماء. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا عَابَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ. رواه البخاري ومسلم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَارٌ، فَقُلْتُ – أي عروة بن الزبير–: يَا خَالَةُ! مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتِ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ، وَالْمَاءُ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا. رواه البخاري ومسلم. إن المربي حين يتوافق مع حال بيته يكون ذلك أرسى لمعاني الاكتفاء بالموجود والشكر عليه، وعدم اللهث خلف المفقود والسعي إليه، وهاتان الخصلتان من أعظم ما تُربى عليها البيوت لا سيما في عصر المادة والكماليات واطلاع الناس على بيوت بعضهم، إذ كثير من البيوت فقدت بريق اجتماعها وعنفوان قوتها وتآلف قلوبها؛ لاختلافها على المفقود والموجود!

ذ. حل المشكلات: لا يخلو بيت من مشكلات تحيط به وتتخلله، ولم يسلم منها حتى بيت النبوّة، ولكن العبرة في حسن التعامل مع المشكلات وإدارتها بفعالية، للخروج منها بأقل الخسائر وأكثر الأرباح، نعم إن المربي المتمكن وولي الأسرة الحصيف قد يخرج من المشكلة بلا خسائر، فضلاً أنه قد يخرج منها بقيمٍ زرعها وسلوكيات قوّمها، ودونك هذه القطعة من حادثة الإفك ترويها عائشة رضي الله عنها: (..فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول: "كيف تيكم" ثم ينصرف فذلك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت..) رواه البخاري ومسلم. فتأمل ما كان يعرفه رسول الله وكيف لم يظهر عليه من ذلك أمام زوجه سوى أنها لم تعد ترى اللطف الذي كان منه عليه الصلاة والسلام، ولكنها لم تؤذى أو تهان أو تُخرج من بيتها، وهذا من حسن إدارة ملف المشكلة للخروج منه بأقل الخسائر، ويتمثل الحُسن هنا في الحلم والتثبت وعدم الاستعجال. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: آلَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من نسائِه شهرًا، وكانتِ انفكَّتْ قدمُه، فجلَس في عُلَيَّةٍ له، فجاء عُمَرُ فقال: أطَلَّقْتَ نساءَك؟ قال: "لا، ولكنِّي آلَيتُ منهنَّ شهرًا"، فمكَث تسعًا وعِشرينَ ثم نزَل، فدخَل على نسائِه. رواه البخاري. وهذه المدة كانت كفيلة بمراجعتهن أنفسهن والندم على خطأهن، ولم يكن فيها النبي شاتماً أو ساباً وحاشاه عليه الصلاة والسلام. فقد روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقسمَ أن لا يدخل على أزواجِه شهرًا. قال الزهريُّ: فأخبرني عروةُ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت: لما مضت تسعٌ وعشرون ليلةً، أَعُدُّهنَّ، دخل عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. (قالت بدأ بي) فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنك أقسمتَ أن لا تدخل علينا شهرًا. وإنك دخلتَ من تسعٍ وعشرين، أعدُّهنَّ. فقال: "إنَّ الشهرَ تسعٌ وعشرون". وعند البخاري في حديث طويل لابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم: "..فاعتزَل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أجلِ ذلك الحديثِ حين أفشَتْه حفصةُ إلى عائشةَ، وكان قد قال: ما أنا بداخِلٍ عليهنَّ شهرًا، من شدةِ مَوجدَتِه عليهن حين عاتبَه اللهُ، فلما مضَتْ تِسعٌ وعِشرونَ، دخَل على عائشةَ فبدَأ بها، فقالتْ له عائشةُ: إنك أقسَمتَ أن لا تدخُلَ علينا شهرًا، وإنا أصبَحنا لتسعٍ وعِشرينَ ليلةً أعُدُّها عدًّا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "الشهرُ تِسعٌ وعِشرونَ". وكان ذلك الشهرُ تِسعًا وعِشرينَ، قالتْ عائشةُ: فأُنزِلَتْ آيةُ التخييرِ، فبدَأ بي أولَ امرأةٍ، فقال: إني ذاكِرٌ لكِ أمرًا، ولا عليكِ أن لا تعجَلي حتى

تستأمِري أبوَيكِ. قالتْ: قد أعلَم أن أبوَيَّ لم يكونا يأمُراني بفِراقِك، ثم قال: (إن اللهَ قال: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ – إلى قولِه – عظيمًا). قلتُ أفي هذا أستأمِرُ أبوَيَّ، فإني أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخِرَةَ، ثم خيَّر نساءَه، فقُلْنَ مثلَ ما قالتْ عائشةُ".

ر. رعاية الأبناء واحتوائهم: روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة النهار لا يكلمني ولا أكلمه حتى أتى سوق بني قينقاع فجلس بفناء بيت فاطمة فقال: "أثم لكع أثم لكع؟" فحبسته شيئا فظننت أنها تلبسه سخابا أو تغسله فجاء يشتد حتى عانقه وقبله، وقال: "اللهم أحببه وأحب من يحبه".

وقد حظيت البناتُ بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان إذا دخلت عليه فاطمة ابنته، قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده وقبلته وأجلسته في مجلسهاــ رواه أبو داود والترمذي. وروى أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها.

وفي صحيح مسلم قالت عائشة رضي الله عنها: كُنَّ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تُخطئ مشيتها من مشيةِ رسول الله شيئاً فلما رآها رحّب بها وقال: "مرحباً يا بنتي"، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: وُلِدَ لِيَ اللَّيلةَ غلامٌ فسمَّيتُهُ باسمِ أبي إبراهيمَ ثمَّ دفعتُهُ إلى أمِّ سيفٍ امرأةِ قينٍ يقالُ لَهُ أبو سيفٍ. فانطلقَ يأتيهِ واتَّبعتُهُ فانتَهينا إلى أبي سيفٍ وَهوَ ينفخُ بكيرِهِ قدِ امتلأَ البيتُ دخانًا، فأسرعتُ المشيَ بينَ يدي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقلتُ: يا أبا سيفٍ أمسِك جاءَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فأمسَكَ فدعا النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بالصَّبيِّ فضمَّهُ إليْهِ وقالَ: ما شاءَ اللَّهُ أن يقولَ، فقالَ أنسٌ: لقد رأيتُهُ وَهوَ يَكيدُ بنفسِهِ بينَ يدي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فدمَعت عينا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: "تدمعُ العينُ ويحزَنُ القلبُ ولا نقولُ إلَّا ما يُرضي ربَّنا واللَّهِ يا إبراهيمُ إنَّا بِكَ لَمحزونونَ". أخرجه البخاري بنحوه، ومسلم واللفظ له. فتأمل: (فأمسَكَ فدعا النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بالصَّبيِّ فضمَّهُ إليْهِ وقالَ: ما شاءَ اللَّهُ أن يقولَ).

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبـــي حُمرة لسانه فيهش له. رواه الألباني في السلسلة الصحيحة. وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاعب زينب بنت أم سلمة وهو يقول: "يا زينبُ، يا زوينبُ، مراراً" رواه الألباني في السلسلة الصحيحة وصحيح الجامع الصغير. وهكذا فقد كان صلى الله عليه وسلم يلاطف بناته ويُقّبل أحفاده ويلاعبهم، وكل ذلك من الأدوار التربوية داخل البيت إذ ليست قاصرة على الوعظ والإرشاد، فالتربية عملية تكاملية تلبي لكل مرحلة احتياجها، وتعطي كل جنس ما يلائمه، بتوازن وشمول يكفل بإخراج شخصية متكاملة متزنة.

ز. مع الخدم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عشر سنين والله ما قال لي: أفاً قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا. متفق عليه واللفظ لمسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة. رواه مسلم. وهو القائل صلى الله عليه وسلم عن الخدم: "هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم" رواه مسلم. وهذا يدل على تواضعه الجم، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "وما تواضع أحد لله تعالى إلا رفعه" رواه مسلم. وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان: "من تواضع لله رفعه حتى يجعله في أعلى عليين".

ثانياً: "قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا":

وفي هذا العنصر نتطرق لدور أصيل في تربية الأسرة لا يقل أهمية عن العنصر الأول، وهو جانب الإصلاح والتقويم، وهنا مواقف تحكي لنا واقع الإصلاح والقوامة الحقيقية في بيت النبوّة، حيث إلى جانب الرحمة والرأفة ومراعاة الخواطر، تتبدى الرحمة الحقيقية بهم في تقريبهم من الجنة وإبعادهم من النار.

١. مع أهل بيته: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اطّلع على أحدٍ من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبةً. رواه أحمد وهو في صحيح الجامع، وقال صلى الله عليه وسلم: "علّقوا السوط حيثُ يراهُ أهلُ البيت فإنه آداب لهم" رواه الطبراني وهو في صحيح الجامع الصغير. قال البخاري رحمه الله: باب إخراج المتشبهين بالنساء في البيوت، وساق حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن النبي صلى الله عليه وسلم فلاناً وأخرج عمر فلانة. وفي صحيح

البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصـــاليب إلا نقضه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترتُ بقرامٍ لي على سهوة لي فيها تماثيل، فلما رآه رسول الله هتكه وقال: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"، قالت: فجعلناه وسادةً أو وسادتين. متفق عليه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا –تعني قصيرة–، فقال: "لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته"، قلت: وحكيت له إنساناً، فقال: "ما أحب أنـــي حكيت انسانا وأن لي كذا وكذا". رواه أحمد وأبو داود والترمذي، فبين لها رسول الله خطورة هذه الكلمة التي قالتها في ضرتها صفيه ووعظها ولم يوافقها، بل ذبّ عن عرض صفية بالغيبة وهو القائل: "من ذبّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار" رواه أحمد وهو في صحيح الجامع.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: بلغَ صفيه أن حفصة قالت: بنتُ يهودي، فبكت فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي فقال: "ما يُبكيكِ؟" فقالت: قالت لي حفصة أني بنت يهودي، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي ففيم تفخر عليكِ؟" ثم قال: "اتقي الله يا حفصة" رواه أحمد والترمذي، فبيّن صلى الله وسلم لصفية ما فيها من فضائل وما لها من مكانة ثم وعظ حفصة وذكّرها بالله.

وكان صلى الله عليه وسلم يتعاهد أهله بالتعليم والتوجيه، فعن ابن عباس عن أم المؤمنين جويرية بنت حارث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: "ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟"، قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ثلاث مرات لو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنه عرشه ومداد كلماته" رواه أحمد ومسلم، وفي الحديث بيان ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من النصح لأزواجه وإشفاقه عليهن وحرصه على تعليمهن ودلالتهن على الخير، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: "رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليـــل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء" رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وبعد هذا العرض يتبدى لك الهدي النبوي مع أزواجه في دعوتهن لخير القول والفعل، وفي تعليمهن وزجرهن عند المعصية وإيضاح فضائل الأعمال الصالحة وخطر الذنوب، وذلك بأشكال متنوعة كالإعراض مثلاً حال الكذب، والتوضيح حال الخطأ،

والإرشاد حال الجهل، وهكذا، وجماع ذلك القدوة في كل أمر يدعو إليه؛ لذا كان من جُلّ ما روته أمهات المؤمنين وأصحابه الكرام عن أحواله عليه الصلاة والسلام.

٢. مع أبنائه رضي الله عنهم: عن عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّ فَاطِمَةَ رضي الله عنها شَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ أثر الرَّحَى فِي يَدِهَا فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَلَمْ تَجِدْهُ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ علي: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْتُ أَقُومُ فَقَالَ: "مَكَانَكَ" فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي فَقَالَ: "أَلا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وكَبِّرَا أربعا وَثَلاثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ". رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كخ كخ ليطرحها"، ثم قال: "أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة". رواه البخاري ومسلم.

ثالثاً: "كان خلقه القرآن":

صلاح الإنسان في نفسه صلاح لمن معه ولمن يخلفه، وتأمل قول الحق تعالى: " وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)" (الكهف)، فحُفظ الأبوان في آخرتهما من ابن كافر لصلاحهما، وحُفظ مال اليتيمين لأن أباهما كان صالحاً، وهكذا يكون صلاح الأب وتقاه مدعاة لصلاح من خلفه وأن يهيئ الله لهم من خلقه الصالحين، قال سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ"(فصلت: ٣٠). وقوله: "تتنزل عليهم الملائكة" قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: "ألا تخافوا" قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، "ولا تحزنوا" [أي] على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" فيبشروهم بذهاب الشر وحصول الخير[٣]. فأنت ناظر إلى صلاح الأب وجاء ووقاء

[٣] تفسير ابن كثير.

وصلاح لمن بعده، يقول تعالى: "وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" (النساء:٩).

إذن هذه مقدمة في أهمية صلاح الأب أو العائل وكيف أثرها بعد موته، ولا شك أنه لا يقصد بهذا الاهتداء صلاح بنيه بالدرجة الأولى، فالمقصد الأول هو رضى الله والفوز بالجنة، وصلاح بنيه وحفظهم فرع من ذلك الأصل، وأما عن أثر صلاح الأب عليهم حال دنياهم فلا شك أنه في تأسيس المعاني الفاضلة وشعب الإيمان من جراء معايشته لهم، ومشاهدتهم إياه، كما أن رسول الله كان يوصي بذلك صراحة "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً" رواه أحمد وأبو داود؛ لما في إقامة العبادة والذكر وتلاوة القرآن من خير وافر على البيت أهله، لا سيما في الاقتداء بذلك، وهذه بعض الآثار النبوية:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة رضي الله عنها: لَمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!، قال: "أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا" متفق عليه.

وفي صحيح ابن حبان عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي"، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ، فَجَاءَ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" (البقرة:١٦٤) الآيَةَ كُلَّهَا".

وروى أبو داود عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوضَعُ لَهُ وَضُوءُهُ وَسِوَاكُهُ، فَإِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ تَخَلَّى ثُمَّ اسْتَاكَ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ"، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلاَلٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ. رواه البخاري ومسلم.

إذن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالاً لما يأمر به، وكان هديه صلى الله عليه وسلم هو التأويل الواقعي لأمر الله وشرعه، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما روى مسلم في صحيحه أن سَعْد بْنِ هِشَامٍ بن عَامِرٍ قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى!! قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ.

- الخاتمة:

أرجو الله أن نكون من الموفقين في القيام بهذا الدور العظيم، والذي يعتبر أولوية في حياة المصلحين، فتكون البداية في عملية الإصلاح بعد النفس، من الأسرة. فأولويتها تستلزم وجودها على أعلى قائمة المهمات اليومية، وأن تعطى الوقت الكافي، وأن يُبذل لها أنفس الدعاء، وأنفع الاعتناء، فإن بناء الأرواح وإقامة الذوات لا تقل أهمية عن بناء الأجساد وتهيئة المسكن، ثم إن هذا الجهد مقرون بتوفيق الله في الهداية والصلاح، المهم أن تبذل، والهداية بيد الله يقول الحق: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص:٥٦). اللهم اهدنا واهد بنا.

وكتبه

سعيد بن محمد آل ثابت

هذا الكتاب منشور في